فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته
مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات
مراجعة علمية نقدية

عرض
أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مدخل: فرائض تقدير الأبوة الروحية لرائد اللسانيات المعاصرة

تبدو قضية الوفاء العلمي لرائد اللسانيات المعاصرة بوصفها عملا غربيا بامتياز ماثلة في معاودة الحفاية بمنجز هذا الرائد الفذ من منظور عملي يعيد فرص منجزه، وقرائته قراءة تستهدف إعادة البناء، وتستهدف الضبط، والتقويم لما شاع وانتشر من أفكاره اللسانية العابرة للاختصاصات.

وتعيد قضية الوفاء لهذا الرمز التذكير بما يشغله من مساحات في الوعي المعاصر أحد أهم المؤسسين للسانيات والسميائيات، إن لم يكن أهمهم بإطلاق.

وفرديناند دوسوسير ١٨٥٧ ـ ١٩١٣م رمز حقيقي للتغيير الجذري الذي يستند إلى خلفية معرفية مكتنزة، ومنهجية نقدية تملك القدرة على إحداث تحولات عميقة جدًّا من نوع الاكتشافات بقدر واضح من أمرين ظاهرين بصورة مذهلة يبدوان فيما يلي:

- **أولا**: الإدارة الواعية للذات، واختيار المواقف، والتأتي لحماية الاكتشافات العلمية من شغب دعاوى التأثير والتأثر.
- **ثانيا**: الشجاعة العلمية القادرة على تطوير الأفكار، وتقويما ما يحتاج إلى تقويم، والمراجعة المستمرة للمقولات سعيا إلى وضوحها، وعقلنتها، وصيانتها سياج صلب من الأدلية، وتخليصها من الأفكار السابقة عليها.

وهذا الكتاب جملة تستهدي بمخطوطات هذا الرائد تستهدف الوفاء العظيم له بطريقة عملية إيجابية.

كتاب فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته: مادته، وانتماؤه المعرفي، وقيمته الحضارية.

١/١ مادة الكتاب:

ضم هذا الكتاب المهم مقدمتين وستة فصول، كما يلي:

- مقدمة لويك دوبيكير المؤلف أستاذ علم المصطلح وعلوم اللغة في جامعة باريس (٣) السوربون الجديدة، مؤسس الجمعية الفرنسية لعلم المصطلح، ورئيسها الحالي.

وهذه المقدمة خص بها هذه الترجمة العربية وحكى فيها جزءا من معاناة تأمل مخطوطات دوسوسير التي تمكن من خلالها من تعديل بعض أفكاره اللسانية، وتوضيح بعضها الآخر.

- مقدمة الكتاب العامة
  - الفصل الأول: كل ما في اللسان تاريخ.
  - الفصل الثاني: اللسان.. نظام قيم قبل أي شيء آخر.
  - الفصل الثالث: مقاربات اعتباطية الإشارة.
  - الفصل الرابع: اللسان ووعي الأشخاص المتكلمين.
  - الفصل الخامس: واقع اللسان: اجتماعي قبل أي شيء آخر.
  - الفصل السادس: لابد من أنها سيميائيات.

(٢/١) الانتماء المعرفي للكتاب:

يفتح تأمل هذا الكتاب، والوعي بموقعه الفكري في طموح اللسانيات المعاصر الذي يوشك أن يكون انفلاتا حقيقيا من مجموع السلطات المتصورة معرفيا ـ السبيل إمام فحص انتمائه المعرفي.

صحيح أن التصنيف الضيق يضعه في الصميم من حقل اللسانيات، لكنه خطاب أهدافه، ووظائفه، ومنهجية معالجته لأفكار دوسوسير تنجرف به نحو حقول معرفية أخرى، يمكن رصدها فيما يلي:

أولا: السيميائيات:

يمثل حقل علم العلامات (السيميائيات) الحفل المركزي الأوسع لمنجز دوسوسير، ومن ثم لكتاب لويك دوبيكير: فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته، يقول دوبيكير في خاتمة الكتاب (ص ٢٥٤): "في نهاية هذه المسيرة تظهر شيئا فشيئا ضرورة تحديد موقع الإشارة اللغوية بالمقارنة بأنواع أخرى من الإشارات (العلامات، والرموز، الخ) الأمر الذي يؤدي إلى الانفتاح على "علم لا وجود له في المجالات المعرفية": إنه السيميائيات؛ وهو علم الإشارات العام وتحتل اللسانيات فيه مركزا أساسيا".

ومن ثم يكون مركز منجز دوسوسير هو السيميائيات وتمثل الإشارة اللغوية جزءًا من نظام إشارات أخرى أوسع وأشمل.

ثانيا: الفيلولوجيا:

يعيد هذا الكتاب الجديد الاعتبار للفيلولوجيا، ويمنحنا الثقة الكاملة في الخدمات المعرفية التي ما يزال يرعاها البحث الفيلولوجي.

لقد تأسسات فكرته، حول استثمار مخطوطات فرديناند دوسوسير في إعادة فحص أفكاره اللسانية، وتدقيقها، ومراجعتها، وتحريرها، وبيان النقص الذي أحاط بنشرها من طريق تلاميذه: بالي وسيشيهاي وغيرهما.

ولا تخلو صفحة من صفحات هذا الكتاب من ظهور المؤشر اللغوي الماثل في مفردة (مخطوطات دوسوسير) الدال على ما تقرره هنا.

إن كتاب لويك دوبيكير يقرر في وضوح تام أن زمان الفيلولوجيا ما يزال مستمرا، وأن الخدمات المعرفية التي تمنحها لعصرنا ما تزال كثيرة جدًّا، ومفيدة جدًّا في الوقت نفسه.

وقد نص دوبيكير على ما يدل على وعيه بقيمة الفيلولوجيا وما أنتجته من إجراءات، من مثل تحقيق النصوص، وتأريخ المخطوطات.

ثالثا: تاريخ اللسانيات الحديثة

يوشك أن يكون هذا الكتاب فصلا مهما في تاريخ اللسانيات الحديثة؛ لأنه يتتبع تاريخ تطور الأفكار اللسانية في منجز المؤسس الحقيقي للسانيات في العصر الحديث.

هذا الانتماء المعرفي لكتاب دوبيكير تظهر علامات في وعي مؤلفه من ملمحين دالين هما:

أ. صناعة ملحق مهم يعالج تأريخ أفكار دوسوسير موزعة على السنوات بدءا بسنة مولده ١٨٥٧م، وانتهاءً بوفاته ١٩١٣م، وعنوان ذلك الملحق: نبذة تاريخية فكرية عن حياة دوسوسير.

ب. صناعة ملحق آخر مهم يعالج تأريخ المدونات المخطوطة بيد دوسوسيروتلك التي بيد طلابه، بدءا بسنة صدور مؤلفه المركزي ١٩١٦م الذي وصفه جزئيا: ألبير رولينغر، وكتبه شارل بالي، وألبير سيشيهاي، وانتهاءً بنشر المخصص لدوسوسير ٢٠٠٣م،برعاية سيمون بوكيه.

وقد استقر في ترسيم حدود اللسانيات المعاصرة والنظر إلى تاريخ علم اللغة بوصفه فرعا من اللسانيات، وواقعا في الصميم من هذا الحقل المعرفي.

رابعا: أنساق التأليف

فحص هذا الكتاب يكشف عن استعادة نوع عريق من الأنساق التأليفية، كان فاشيا وشائعا بصورة ظاهرة في تاريخ العلم في حضارة العرب، وهو نسق التأليف على منوال "الحاشية".

إن كتاب (فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته) للويك دوبيكير يعيد إحياء نسق الحاشية في تتبعه لنصوص دوسوسير كما جاء في نسخ مخطوطاته المختلفة، شارحا، ومعلقا على مضامينها الفكرية اللسانية، ومرجحا لما يظهر من تعارضات القراءة، ومدللا على صحة استنباطاته، وترجيحاته بصورة تعيد للدارسين منهجيات بناء الحواشي التراثية، بما هي نسق من أشهر أنساق التأليف المتوارثة في كثير من الحضارات، ولا سيما حضارة العرب.

ومن النصوص الدالة جدًّا على ما نقرره هنا قول دوبيكير (ص ٤٦): "يجب التقيد بالعمل الممحص والدقيق للدخول بمنهجية صارمة في تحليل مخطوطات دوسوسير... من هذا يجب العودة دائما إلى المخطوطات نفسها، وإلى قراءتها مئات المرات حتى الإرهاق. ويجب القيام بذلك ليس عبر تأمل محتواها فحسب، بل عبر استنطاق إخراج الصفحة أيضا، أو ترتيب الكتابة، أو الإضافات، أو الشطب؛ فكل شيء له معنى".

إن إطالة النفس في تأمل النسخ الخطية ودراسة مضامينها، ودراسة مسوّدات المخطوطات "والبقاء أقرب ما يمكن من سياق الجزء" الذي يشرحه المؤلف ـ كلها عمليات وإجراءات شديدة الاستقرارية في بناء المؤلفات من نسق الحواشي.

وكل ذلك يجعل كتاب لويك دوبيكير حاشية بالمعنى الحقيقي على المعلومات اللسانية التي حملتها مخطوطاته دوسوسير، ومخطوطات طلابه التي دونوها وراءه!.

وربما فتح هذا الكتاب الباب أمام حقل جديد للإنسان من التأليفية المقارنة، لفرع من فروع دراسات الأدب المقارن بالمعنى الواسع لهذا الاصطلاح.

(٣/١) قيمة الكتاب

إن هذا الكتاب في ترجمته العربية يعكس مجموعة من الملامح المهمة التي تكشف عن قيمة حقيقة ومجالات معرفية متنوعة، وهذه الملامح الكاشفة عن قيمته يمكن رصدها فيما يلي:

- **أولا**: موقع منجز فرديناند دوسوسير ١٨٧٥ ـ ١٩١٣م في اللسانيات المعاصرة، والسيميائيات.
- **ثانيا**: إعادة الاعتبار للمخطوطات التي اكتشفت بخط دوسوسير وخط طلابه.
- **ثالثا**: النتائج المهمة التي أفرزها تحليل مخطوطات دوسوسير في ضبط أفكاره اللسانية والسيميائية، وفي الكشف عن التطورات المهمة في هذا الميدان.
- **رابعا**: المنهجية الدقيقة التي قامت على المعايير التالية:

أ. اعتماد مخطوطات دوسوسير ومخطوطات طلابه وهو معيار مهم جدا يعرف بجمع النسخ الخطية.
ب. تأريخ المخطوطات. والمخطوطات المؤرخة قيمة أساسية في رصد التطور التاريخي لأفكار دوسوسير اللسانية.
ج. تحليل الإضافات، والشطب، واعتماد المسّودات في قراءة مضامين المخطوطات.
د. استصحاب السياق المصاحب للنصوص الأساسية في نظرية دوسوسير اللسانية.
ه. مراعاة التعارضات، ومحاولة تفسيرها في ضوء القرائن والشواهد التاريخية والسياقية المختلفة والمطيفة بمجموع نصوص دوسوسير.

- **خامسا:** إعادة الاعتبار لعلم الفيلولوجيا، وعلم النشر النقدي للنصوص، أو ما يعرف في التقاليد العربية المعاصرة باسم تحقيق النصوص التراثية، يقول دوبيكير (ص ٢٥٣): "إن قراءة مخطوطات دوسوسير تقلب موازين عدد من وجهات النظر".

ويقول (ص ٢٥٣): "تسعى المقاربة المعتمدة هنا جاهدة إلى تتبع الترتيب الزمني للمخطوطات، مع المحاولة في أن تبقى قريبة قدر الإمكان من تطور فكر دوسوسير".

ومسألة الاعتماد الأساسي على المخطوطات، وتحقيق نصوصها، وقراءتها، وتحليلها، ومعالجة التعارضات الماثلة بين بعض النصوص، وتحليل الخطوط، والدرس الكوديكولجي/ المادي للمخطوطات، والإضافات الملحقة بعدد من النصوص؛ وتحليل الشطوب المختلفة، والمسوّدات ـ كل ذلك يعيد تقدير ما يمكن أن تسهم به الفيلولوجيا في خدمة الحقول المعرفية المختلفة في هذا الوقت من تاريخ العلم.

- **سادسا**: إعادة تأكيد تجاور أنساق من التأليف، واستمرار القديم منها يجحور الأنساق التأليفية الجديدة. وهو ما يعني عغدم اطِّراح أنساق بعينها بدعوى قدمها، وانتمائها لزمان بعيد.

- **سابعا**: تجلي القيمة البيداجوجية/ التعليمية، فقد ظهر من تحليل نصوص املخطوطات وتفسيرها، وطرد تعارضها روح بيداجوجية/ تعليمية حقيقية.

فقد كشف هذا العمل عن قيمة استحضار نسق الحاشية التأليفي بوصفه النسق المناسب للغاية المرصودة الماثلة في مراجعة أفكار دوسوسير اللسانية في ضوء مخطوطاته المكتشفة، وفي ضوء مخطوطاته المؤرخة، والماثلة كذلك في ضبط هذه الأفكار اللسانية، وتدقيقها، ورصد تطورها التاريخي.

وهذه الغايات المنشودة لم تكن لتتحقق من دون توظيف لنسق الحاشية التأليفي بما هو نسق يوم على الإجراءات المنهجية التالية:

أ. تحقيق النصوص التي حملتها المخطوطات.
ب. تأريخ النصوص من خلال تأريخ المخطوطات.
ج. تقدير الإضافات وإضافات الإضافات.
د. تحليل المسوّدات، وتأمل الشطب.
ه. تقدير السياقات المصاحبة.
و. جمع النصوص المتطابقة تطابقا جزئيا، وملاحظة تحليل التعارضات والترجيح بينها.
ز. شرح نصوص دوسوسير، وبيان مضامينها، وتأويل ما يحتاج إلى تأويل.
ح. مراعاة المصطلحات المترادفة، وشبه المترادفة في منجز دوسوسير اللساني.

من مجموع هذه المحددات تتضح لنا قيمة كتاب لويك دوبيكير في مجال الكشف عن حقول النظرية اللسانية المعاصرة التي رادها فرديناند دوسوسير.

فضلا عن المكانة العلمية التي يتمتع بها لويك دوبيكير بوصفه المؤسس والرئيس للجمعية الفرنسية لعلم المصطلح.

٢- من الختام تبدأ الحكايات! خلاصات نتائج فحص مخطوطات دوسوسير:

إن قراءة كتاب: فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته، للويك دوبيكير - فضلا عما منحه من اعتبار الفيلولوجيا - يمنحنا كثيرا جدًّا من التصويبات لكثير جدًّا من الآراء والأفكار اللسانية التي شاعت واستقرت منسوبة إلى مؤسس اللسانيات المعاصرة ورائدها.

وتمنحنا رؤية مترابطة لنظريته اللسانية المحددة، وهذا الهدف واضح تماما في تحليلات دوبيكير وهو يقول (ص ٢٥٣) إن "المقاربة المعتمدة... تهدف إلى استخراج ترابط الأفكار التي قادت دوسوسير إلى نظرية محددة في اللسانيات العامة. هذه النظرية تظهر في النهاية في كل ترابطها من دون أن يستطيع دوسوسير أن يكتبها في كتاب جميل"؛ أي مستخرجة من مخطوطاته.

وفحص مخطوطات المؤسس تكشف عن حقائق أصيلة تتعلق بمنجزه في تأسيس نظريته في اللسانيات العامة بما هي جزء من علم السيميائيات.

وفيما يلي رصد لما كشف عنه دوبيكير من خلال الترتيب الزمني للمخطوطات، وفحص نصوصها المختلفة:

- **أولا**: تمثل الإشارة اللغوية (العلامات اللغوية) جزءًا من نظام من إشارات أخرى تحيط بفحصها السيميائيات. واللغة مركز هذا النظام.
- **ثانيا**: تكمن حقيقة الإشارة اللغوية في قابليتها للتطور (التحول) وتنعكس تجليات هذا التطور في الصوت، وهي جماع مركب معقد من شكل ومعنى (قيمة) وكشف عنه التحليل الصرفي. "وليس من الممكن تحليل شكل دون معناه" وأن الدال والمدلول متبادلان متوازيان، وهما معا يكوّنان الواحد بالنسبة للآخر.
- **ثالثا**: رفض أي ارتكاز لنظرية دوسوسير اللسانية على النموذج الفيزيائي ذلك أنه (ص ٢٥٥): "ليس للسان أي ركيزة في الأشياء فهو ليس مادة".
- **رابعا**: تقع الاعتباطية بنوعيها الجزئية والكلية في الصميم من نظرية دوسوسير، بل إنها "تكوّن قاعدته الأساسية".
- **خامسا**: اللسان في مراجعات مخطوطات دوسوسير "ليس مجرد نظام". وقد ظل يشدد على البعد النفسي للوقائع اللغوية" وهو ما يكشف عن أهمية الوعي في إنتاج اللغة الإنسانية؛ "وإن الشخص المتكلم هو الذي يربط الأشكال بالمعاني، وهو الذي يفسر باستمرار دور القيمة في اللسان".وهو ما يعني أن اللسان هو أساسس عمل علم النفس.
- **سادسا**: تكشف قراءة مخطوطات دوسوسير عن حقيقة ساطعة تقرر أن اللغة هي في الواقع مؤسسة" وهذه الحقيقة مرجعها للأهمية التي يوليها المؤسس للبعد الاجتماعي، عندما يقرر أن اللسان إذن شيء اجتماعي للغاية، وهو يتحقق في الكلام.
- **سابعا**: تكشف تحليلات المخطوطات عن حقيقة حاكمة لإنتاج المعنى، فهي تقرر أن المعنى ينتج من السياق اللغوي والتفسير الذي يمنحه المتكلمون لهذا السياق اللغوي.

"وهكذا يلتقي داخل اللسان وخارجه في القيمة (المعنى)؛ القيمة بكونها نتاج اللغة بين الوحدات، هي أيضا نتيجة التفسير الذي يعطيه الأشخاص المتكلون لهذه الوحدات".

- **ثامنا**: تكشف المخطوطات عن حقيقة أن السيميائيات هو العلم الواسع الذي يشمل دراسة العلاقات والرموز والمؤسسات، مثل الزواج والموحفة، إلخ، وحتى دراسة الأساطير" ويبقى للسانيات "وضع ذو أهمية كبيرة من منظور علم السيميائيات" لدرجة يقرر معها أن "الواقعة اللغوية ليست لغوية إلا لأنها سيميائية؛ أي محددة في إشارة مكونة من دال ومدلول مرتبطين ببعضهما... ارتباطا وثيقا".
- **تاسعا**: إن فحص نصوص المخطوطات المؤرخة مفيد جدًّا في إعادة تنسيب الاكتشافات اللسانية بعد زمان من استقرار نسبتها لمن جاءوا بعد دوسوسير، لقد كشف تحليل هذه المخطوطات من استقرار النظر إلى الشعور بوصفه محددا أصيلا في تأسيس القيمة (المعنى). يقول دوبيكير (ص ٢٦٦): "كي يكون من الممكن أن تصنف الوقائع وأن يحدد لكل واحدة منها مكانها الحقيق في اللسان يجب اعتبار ما يبدو أساسيا للشعور" وهذا الشعور لا يأتي من فراغ.
- **عاشرا**: تقود قراءة المخطوطات إلى حقيقة مهمة جدًّا تتعلق باطراح دوسوسير للسانيات التعاقبية، لقد رمى جانبا اللسانيات التعاقبية "بصورة متسعة.

إن دراسة الشكل غير منفصل عن المعنى هي الفرضية الصلبة في منهجية دراسة اللسان من منظور تزامني، وربما استدعى ذلك ـ أحيانا وفي بعض الأماكن ـ فكرة القيام بتحليل صرفي تاريخي"؛ أي أن المعتمد هو الدراسة التزامنية وكان المطروح بصورة ظاهرة هو الدراسة التعاقبية.

لقد كشف دوبيكير عن إحساس ظاهر ظل حاكما في أفكار دوسوسير يتعلق بالجهاز الاصطلاحي الذي كان سائدا للسانيات، وحاجته إلى الاصطلاح، مما يعني أن الأجهزة الاصطلاحية تمثل عائقا في كثير من الأحيان يمنع من تطوير كثير من الأفكار. يقول دوسوسير (ص٢٦٩): "إن الحماقة المطلقة في المصطلحات السائدة وضرورة الإصلاح؛ وإظهار من أجل ذلك أي نوع من الأشياء هو اللسان، لا تنفك تفسد متعتي التاريخية".

وقد كان دوسوسير من طرف آخر ـ مقنعا ومنطقيا ـ عندما استثمر في السيميائيات في برهنة السيميائيات؛ فقد كشف تحليل المخطوطات عن استثمار عدد من الصور لدعم البرهنة، وبناء محاور للتفكير اللساني بشكل مناسب، ولعل أشهر الصور التي استعملها دوسوسير في دعم التأسيس لنظريته في اللسانيات العامة ماثلة فيما يلي:

أ. صورة لعبة الشطرنج (النظام).
ب. صورة الورقة (العلاقة اللغوية بركنيها الدال والمدلول).
جـ. صوت السفينة (التطور المستمر للسان).

إن هذه النقاط العشرة تمثل مقدمة لتحصيل المفاهيم الفكرية في تطور اللسانيات من خلال مراجعة ما استقر منسوبا لمؤسسها المعاصر فرديناند دوسوسير، وهي مقدمة أشبه بمقدمات الأعمال الدرامية التي تستدعي تقنية النكوص، لتتفرغ لرواية الحكاية بتفاصيلها فيما بعد، وصولا لمرحلة التنوير في هذا العمل الدرامي أو ذاك، وهو مرحلة تفسيرية بامتياز في كثير من الأحيان.

٣- اجتماعية اللسان في المركز:

قادة عمليات تفكيك دوركايم في الحقيقة إلى الكشف عن سهمة أفكاره عن الحقيقة الاجتماعية لاقاهرة في المنجز التأسيسي اللساني الذي فجَّره دوسوسير، وهو ما عبر عنه لويك دوبيكير بعبارة: "واقع اللسان الاجتماعي قبل أي شيء آخر" (ص ١٩٣).

والحقيقة أن تأثير دوركايم يتجاوز حدود التأسيس إلى حدود التقنيات لدرجة يمكن أن نرى في الثنائيات الكافية في منجزه الاجتماعي، كما رصدها محمد حافظ دياب في مقدمته لترجمة كتاب: تفكيك

دوركايم: نقد ما بعد بنيوي، لجينيفر ليمان (ص ٢١ – ٣١) حضورا في الثنائيات الواقعة في منجز دوسوسير كذصلك، في مثل: ثنائية الدال والمدلول، وثنائية اللسان والكلام، إلى غير ذلك من ثنائياته الشهيرة.

وتتأسس مركزية اجتماعية الليان كما رصدها دوبيكير في التتابع الظاهر لآراء دوسوسير في هذصا الباب كما يلي:

- **١/٣ إن اللغة واللسان ليسا بشيئين طبيعيين،** "ويؤكد أن اللسانيات لا يمكنها أن تكون علما طبيعيا" [ص ١٩٣] في قفز شديد الظهور بعيدا عن النموذج الفيزيائي التفسيري. وهذا الأمر مرجعه إلى الاقتناع بأن اللسانيات "تنطبق على أعمال إنسانية تتعلق بالفرد والجماعة".
- **٢/٣ اللسان مؤسسة/ سلطة:** يظهر من تحليل مخطوطات دوسوسير أن اللغة مؤسسة لا علاقة طبيعية لها بالأشياء، يقول [ص ١٩٦]: "لكن اللغة والكتابة ليستا مرتكزتين على علاقة طبيعية للأشياء" أي "ليس هناك أي علاقة في أي لحظة كانت بين صوت صفيري ما وشكل الحرف [ء]".

صحيح أن المقارنة بين مؤسسية اللغة والمؤسسات الأخرى تنتج قدرا من التشابه، لكنها ترتكز على الفوارق والاختلاق مما يجعل مؤسسة اللغة "مؤسسة بحتة" والحاكم لهذه المؤسسة هو الاجتماع الإنساني، بحيث يصبح التفسير الظاهر لمؤسسة اللغة هو أن اللسان مؤسسة اجتماعية؛ فلا يوجد لسان إلا من خلال الكائنات الملموسة والجماعات". ولا توجد مؤسسة اجتماعية أخرى يمكن أن تضاهيه أو تكون مشابهة له". [ص ١٩٩].

ويتضح مفهوم المؤسسة عند حضور مفاهيم أخرى كاشفة عنها هي:

أ. الاصطلاح ب. النظام جـ. القطع

فاللغة اصطلاح اجتماعي. ومن ثم فاللسان إ/ا اجتماعي وإما لا وجود له.

- **٣/٣ لا يمكن استبعاد الفردي**

يقرر دوسوسير حضور قدرة الفرد على استعمال لسان ما وتحقيقه الفعلي في التبادل الاجتماعي. ومن هنا فإن ثمة واقعة فردية تكتسب القيمة عندما تصبح هذه الواقعة الفرد اجتماعية.

ومن جانب آخر فإن إحدى العمليات الأساسية التي تربط بين اللسان والكلام تكمن في البعد النفسي للشخص المتكلم.

إن اللسان بمثابة أخزان الأشكال التي يفكر فيها الذهن أو التي يعرفها" [ص ٢٦٦].

أو هو مستودع الأشكال المسموعة والمستعملة ومعانيها، وهو مخزن تعمل فيه الذاكرة ويصل الأمر بدوسوسير إلى أن يقرر ربط اللسان بما هو مؤسسة، واللسان بما هو نتيجة للعمليات النفسية، وينتج الكلام من استمرار عمليات التبادلات بين الأشخاص المتكلمين، والمعبّر عن هذه التبادلات الدائمة هو القيمة، أو حاصل المعنى.

والذي يمنح هذه العمليات تجلبها الخارجي هو ترابطها في "نظام" من الإشارات وهو نظام القيم. وأساس القيمة مرجعه للقوة الاجتماعية المتولدة من الوسط الاجتماعي، أو على حد تعبير دوبيكير [ص ٢١٥]: "والواقع أن الجماعة هي التي تخلقها وتعطيها المعنى".

وهو ما يعني أن التنفيذ (اللغوي) يبقى فرديا، وأن ما يمنحه ميلاده واعتماده يبقى اجتماعيا، وهذا ال جسم الاجتماعي هو الذي سيغلب شيئا فشيئا.

¾ القيمة أو المعنى مولود من زواج الداخلي (الفردي) بالخارجي (الاجتماعي) تكشف تحليلات دوبيكير لمخطوطات دوسوسير أن القيمة أو المعنى تنتج من تفاعل حقيقي بين الفرد الصذاتي، والاجماعي الاجتماعي، وهو الأمر الصريح الذي يقرره دوبيكير [ص ٢٢٢] عندما يقول: "النتيجة النهائية هي أن القيمة تتكون من صلة الوصل بين الداخلي والخارجي، فهي بالفعل ما يربط بين الواحد بالآخر.

هذه القيمة لديها حياة مزدوجة، من حياتين:

أ. حياة أولى تكمن في أن هذصه القيم لا تفتأ تعمل الواحدة بالنسبة للأخرى.
ب. حياة أخرى تكمن في أنها تتخلق ويعاد تخليقها على يد المجموعة.

إنها حقا نتاج جماعي.

وبذلك نرى تمردا ظاهرا على النموذج الفيزيقي، فاللسان ليس مادة، ومن ثم فالقيمة ليست نتاج تحكمات المادة.

والمدهش أن يتفجر النقاش حول القيمة بما هي نتاج اجتماعي ليصل إلى حدود نفي المجاز، يقول دوبيكير [ص ٩٥]: "إن معنى كلمة ما يتكون من خلال تقابله مع كلمات أخرى... ولا يمكن أن تكون هناك معانٍ مجازية".

ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يقرر أن "واقع تقابل الكلمات المشابهة بحد ذاته هو الواقع الوحيد الذي يحدد صواب الاستعمالات المجازة إننا ننفي في الواقع كونها مجازية".

وهو ما يعني نسبية المعاني في اللسان.

ولعل هذه النقطة هي المدخل الحقيقي لما أقرره من أن فرديناند دوسوسير هو فاتحة الحدث الحداثي في الثقافة الغربية المعاصرة، تأسيسا على طرحه لمقولة نسبية المعاني. وهي إحدى المقولات التأسيسية لغياب المرجعيات وتجاوز المعاني، وعدم ثباتها.

وهذه النسبية حاكمة لكل أنواع الوثائق، وهي دليل إضافي لاستمرار تأكيد نفي النموذجين البيلوجي والفيزيائي. إن الوحدة في اللسان وحدة خاصة، إذ لا يوجد وحدة مادية، فالوحدة اللغوية ليست كما هي الوحدة في علم الحيوان مثلا.

وصعوبة تحديد المعنى الذي يوشك أن يكون "متاهة" ربما يفسر لنا تقرير بلومفيلد ـ فيما بعد ـ حول عدم إمكان الوصف العلمي للمعنى، إن بذرة هذا الشطط أو الانحراف وارد من الإيمان العميق بأن الوحدة اللغوية ليست محددة جوهريا، على الرغم من ترابط الوحدة والدلالة معا.

إن الدور أو القيمة يظهر من المميز التصريفي لكل إشارة، وهذه جميعا مرتبطة بهوية اللسان. وهو ما يجعل المعنى والقيمة المصطلحية مترادفين ترادفا شبه تام.

وهذا التعيين متعدد الأبعاد ربما يسمح بالدعوة إلى التباحث حول التأثير الاعتقادي المسيحي في التأسيس العلمي للوحدة اللغوية ولاقيمة والمعنى، بوصفها أشياء مترابطة ومختلفة معا.

إن حضور فكرة الأقانيم في حقل العقيدة المسيحية المعرفي ألقى بظلاله على طرح قضية ترابط الإشارة والقيمة والمعنى بوفصها مفاهيم مترابط ومتخالفة أو متفارقة معا.

- ١/٤ اعتباطية العلامة اللغوية

من الكلية إلى الجزئية : إن عدم الربط الحتمي أو المادي أو الفعي بين طرفي العلامة أو الإشارة اللغوية (الدال/ والمدلول) بات من الحقائق اللسانية المعاصرة التي نشرتها اللسانيات الحديثة بتأثير دوسوسير الطاغي حتى بات الاقتراب منها بأي درجة من درجات التشكيك نوعا من الجرأة على اليقينيات.

والمدهش أن الغوص في تحليل مخطوطات دوسوسير ـ كما يقرر لويك دوبيكير ـ أفضى إلى ذلك الاقتراب الذي كان بمثابة المحرمات أو الكبائر في الدرس اللساني المعاصر.

لقد كشف التحليل ظهور نوعين من الاعتباطية هما:

أ. الاعتباطية الكلية.
ب. الاعتباطية الجزئية.

إن الاعتباطية تعني خاصية ما ليس لديه أي ربط ضروري، أو هي خاصية عنصر لغوي أو سيميائي يكون خاليا من أي رابط ضروري. وفي هذا السياق تفرض صورة (الورقة) حضورها المقرّب لحدود الوحدة اللغوية المتكونة من (شكل/ ومعنى)، وهذا التصور للوحدة اللغوية بما هو : (مجموعة صوتية + فكرة) غير قابلة للتقسيم في الحقيقة، وهو الفصل الذي إن تصورناه فقدت الكلمة وجودها.

وهذا التصور حاكم لعلم الصرف في اللسانيات السوسيرية بوصفه "العلم الذي يتناول وحدات الصوت المتطابقة مع الفكر؛ والذي يتناول تجمع هذه الوحدات". [ص ١٣٠].

إن الإشارات اللغوية تجمع من انصهار شكل ومعنى.

وهذا التصور يستدعي كذلك صورة (المنطاد) بما هو شكل مقترح للتعبير عن حقيقة الإشارة اللغوية بمكونيها، فالشكل هو (الدال) وهو غلاف المنطاد، والمعنى (المدلول) هو (الهيدروجين) الذي يطير بالمنطاد.

وأظهر ما تنتجه الإشارة اللغوية هو النظر إليها من منظار الاعتباطية، وهو ما يعبر عنه دوبيكير استنادا لفحص المخطوطات بقوله: [ص ١٤٠]: "إن المعنى لا يبرز خارج الكلمات، وهو ما يعني أن المعنى اعتباطي، واصطلاحي (تراخيص) ومستقل، يقول دوسوسير في مسوّدة إحدى مخطوطاته: "إن قوة الإشارات تكمن في طبيعتها الاصطلاحية، وفي طبيعتها الاعتباطية، وفي طبيعتها المستقلة عن الحقائق التي تدل عليها".

ويخشى دوبيكير بما يفهمه عن دوسيسير فيقرر أن الاعتباطية مفهوم يحيط به مجموعة من التحذيرات هي:"

أ. الاعتباطية لا تعني منح الحرية للفرد في اختيار عناصر اللسان، فهو خاضع للنظام.
ب. إرث الماضي مفروض على الجتمع بسبب وقائع التطور ويقرر أن العلاقة الاعتباطية تظهر في علاقات هي:
- علاقة الإشارة بالشيء.
- علاقة الإشارة بالفكرة من حيث هي عنصر من التفكير.
- ج. العلاقة الداخلية للإشارة بين الشكل والفكرة.
- د. العلاقة بين الصوت والإشارة الخطية (الكتابية).

وقد كشف دوبيكير عن مجال جديد يمسيه بحدود الاعتباطية، ويقرر أن الاعتباطية تسود كل مكان إلا أنه يرى أن المرسل هو من يمنح العنصر اللغوية القيمة والمعنى الواضح، مما يعوّض عن الانطباعية بشكل خاص لدى الشخص المتكلم [ص ١٥٠]، كما أن البعد الاجتماعي يقوم بتعويض هيمنة الاعتباطية، وهو الأمر الذي يصل باللسانيات السوسيرية بعد اكتشاف مخطوطات الرائد إلى أن تقرر أن الاعتباطية "محددة" بسبب ترابط عناصر اللسان. وهذه المناقشة أنتجت أمرين يمكن التعبير عنهما بما يلي:

أولا: اعتباطية نسبية.

ثانيا: اعتباطية مطلقة.

ومما يخفف من هيمنة الاعتباطية ما يعرف بالارتباط التعاضدي/ الارتباطي أو التعاضد النظمي، سوء صنعه التداعي في الذهن، أو صنعه تقارب السلاسل الصوتية بين بعض الكلمات.

كما أن وجود بعض عناصر التبرير أو الارتباط بنظام ناتج التاريخ يخفف من الاعتباطية.

والتفرقة بين نظامين من أنظمة الاعتباطية هما: الاعتباطية المطلقة والاعتباطية النسبية المحددة إنجاز حقيق للكشف عن مخطوطات دوسوسير بامتياز.

خاتمة

تناولت هذه المراجعة العلمية النقدية لكتاب (فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته) للويك دوبيكير؛ إيمانا بأن المراجعات العلمية أعمال علمية مركبة تستهدف التحليل، وقد كشف عن حزمة من النتائج المهمة، نجملها فيما يلي:

- **أولا**: استمرار الحفاوة بدرس الفيلولوجيا، واعتماده في الأكاديميات المرموقة، وإعلان نهوضه بمطالب العلم في العصر الراهن.
- **ثانيا**: كشفت هذه المراجعة عن بقاء النسق التأليفي المتمثل في نسق التحيةعلى النصوص الرائدة، فهذا الكتاب مثال للحواشي التي ما تزال تعمل عملها في التصنيف المعاصر.
- **ثالثا**: قاد تحليل مخطوطات دوسوسير إلى ضبط مبدأ اعتباطية الإشارة، وتقسيمها قسمين:
  أ. الاعتباطية الكلية المطلقة.
  ب. الاعتباطية النسبية المحددة.
- **رابعا**: كشف تلحيل الكتاب لمخطوطات دوسوسير عن إسهامه المركزي في اللسانيات الحديثة، بحيث ميكن أن نرى بعض آراء بلومفيلد عن عدم إمكان الوصفي العلمي نوعا من استثمار ما قرره دوسوسير عن صعوبة الإحاطة بالقيمة أو المعنى.
- **خامسا**: تجاوز تأثير دوسوسير ميدان اللسانيات إلى ميادين معرفية كثيرة، وظهر من خلال سطوة الاختلافات، وعدم ثبات القيمة أنه ربما كان واحدا من آباء الحداثة المعاصرين في الغرب.
- **سادسا**: كشف تحليل المخطوات عن نوع من مدادية التفكير في كثير من الأفكار اللسانية كان يمارسه دوسوسير إلى قبيل رحيله.
- **سابعا**: كشف تحليل مخطوطات دوسوسير عن حضور قوي لاستثمار الأمثلة بوصفها وسيلة بيداجوجوية (تعليمية) وحجاجية إقناعية لم تفقد قوتها مع مرور الزمن وهو الأمر الذي يظهر في الأمثلة التوضيحية المتمثلة في: لعبة الشطرنج، والمنطاد، والورقة، والسفينة، وقطعة القماش، والجسد والروح، والهواء، والماء، الخ.
- **ثامنا**: ظهرت حفاوة لويك دوبيكير بتضبيبات تحقيق نصوص دوسوسير وترميم بعضها للوصول إلى قراءة صحيحة لأفكاره، وهو ما يعني ضرورة العناية بالأثر النقدي للنصوص في الميادين المختلفة.

المراجع:

- تفكيك دوركايم، نقد ما بعد بنيوي، ترجمة محمود أحمد عبد الله، مراجعة محمود الكردي، تقديم حافظ دياب، المركز القومة لتلرجمة القاهرة (٢٠٨٥) ٢٠١٣م.
- فهم فرديناند دوسوسير وفقا لمخطوطاته، للويك دوبيكير: مفاهيم فكرية في تطور اللسانيات، ترجمة ريما بركة، مراجعة: بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

***